١٣ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة محمد حسن عبشي

إن تاريخ البدو أيام الجاهلية لايخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالحرى هو ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر بغية السلب والنهب . ولم يكن ثمة حاجة تدعو إلى الاستغاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويصب على الآخر وابلا هطالا من الأهاجي المقذعة ، وتؤسر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ولكن القليل منها يؤدي إلى نشوب حرب ، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهومرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوي على البطولة . ويقول ثوربك بصدد هذا الشأن : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب إلى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة له التي تستأهل عناية الباحث فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التي ظلت محفوظة ، وطبقاً لما يذكره السيوطي كان العرب يطلبون من أي بدوي يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أبيات تتعلق بها . والحقيقة أن كل مثل هذه الأقاصيص التي ضغطت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، ويتضح في أغلب الأحيان أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعاً وهيئت حتى توافق موضوع الأشعار[1] ، ورغما من أن معظم ما يتعلق بأيام العرب خرافي إلى حد بعيد إلا أنه يصف في أمانة الخصومات القبلية التي كانت تنشب بينهم والطريق الذي كانوا يسلكونه فيها ، وقصة[2] حرب البسوس التالية - وهي أشهر حرب في الجاهلية كافية في تصوير هذا الجانب المهم من الحياة البدوية ، وجنوب أرض نجد المرتفعة يقترب المسافر بالتدريج من البحر الأحمر الذي تفصله عن الجبال المحاذية له أرض منخفضة ضيقة يقال لها تهامة ، أما الحجاز فهو تلك اهضبة الوعرة المسلك التي تقوم بين نجد والشام . وهذا هو الشعب الذي كانت تسلكه في الأزمنة القديمة قوافل السبئيين محملة بالبضائع الغالية الثمينة ، ميممة شطر موانئ البحر الأبيض المتوسط ؛ ومنذ عدة قرون قبل الميلاد نشأت محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكرَب (مكة فيما بعد) وفي شمالها يثرب (اسم المدينة قبل الاسلام) ولسنا نعرف شيئا عن سكانهما الأولين أو تاريخهم إلا ما تفيض به روايات الكتاب المسلمين التي تطوي القرون القهقرى حتى تصل إلى ذكر أيام آدم وإبراهيم ؛ ولقد كانت مكة مهد الاسلام هذا الدين الذي كان - كما يذكر محمد (ص) - ملة إبراهيم ، ولكن جاء من بعده خلف أفسدوه إلى أن أرسله الله ليطهره من شوائبه مبشراً به من جديد ، ولذلك قيل إن دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام بزمن كبير كان هو في ذاته الإسلام . وإن مدينة الإسلام المقدسة لتظهر منذ آلاف السنين وهي معمورة بفيض هذا السناء ، ويقال إن العرب حينذاك كانوا جميعا يعبدون « الله » ثم تفرقوا بعد ذلك وزلوا بعبادة الأوثان ولكنهم عادوا كحجاج إلى مزار خصص أولا للكائن الأعظم الفرد ، بيد أن المطاف قد استحال إلى حرم لآلهة القبائل المختلفة ، وهذه النظرية من أول ما جاء به الإسلام ، وسأقص - جهد ما أمكنني الإختصار - النقط البارزة القوية .

في وادي مكة - وهي البيت الأول لهذا الفريق من الجنس العربي الذي يدعي أنه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من زوجه هاجر - يقوم بناء مكعب الشكل على غير نظام ، وفي مساحة صغيرة ذلك هو الكعبة ، وتنسب قصة بنائها إلى آدم الذي شادها بأمر سماوي ، وحينما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة إلى السماء حتى إذا غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق اسماعيل وإبرهيم . وبينما كانا منهمكين في عملهما هذا جاءهما جبريل بالحجر الأسود المعروف وموضعه الجنوب الشرقي من البناء ، وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ولما انتهى البناء انتصب ابراهيم واقفا على صخرة يطلق عليها المتأخرون « مقام إبراهيم » واستدار إلى الجهات الأربع ثم

(1) Thorbecke : 'Antarah, ein Vorislamischer Ditcher, P. 14.

(٢) لم نشأ ان نكتب هذه القصة لشهرتها عند قراء العربية ويكفي القارىء مراجعة ما ذكره التبريزي في شرحه للحماسة (طبعة Freytag) ص ٤٢٠ - ٤٢٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٣ كذلك راجع ايضا Delectus للدكة ص ٣٩ وما يليها

ولى وجهه شطر السماء وصاح « أيها الناس : لقد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق فاستمعوا لأمركم » . وحينئذ أجابته من كل الجهات أصوات هاتفة « لبيك اللهم لبيك » .

وكثر نسل اسماعيل حتى ضاق بهم الوادى فساح عدد جم منهم فى فجاج الأرض ، وخلفتهم قبيلة جرهم كأسرة حاكمة للبقعة المقدسة ، ولقد غرقت تلك القبيلة فى الكبرياء والآثام حتى حلت نقمة الله عليها ، وكثيرا ما يشار إلى انفجار سد مأرب الذى جعل الكثير من عشائر اليمن تشد رحالها ناحية الشمال ، ولقد استقر المهاجرون فى الحجاز واستأصلوا غالبية الجرهميين ثم واصلوا السير إلا قبيلة واحدة تلك هى قبيلة خزاعة التى استقرت فى جوار مكة تحت امرأة زعيمها لحىّ ، واشتهر عمرو ابن لحىّ بين العرب بثرائه وكرمه ، ويقول ابن هشام « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مأرب من أرض البلقاء وبها يومئذ العمالیق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل . فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه [1] . وقلده العرب فى ذلك فجاءوا بأوثانهم ونصبوها حول المعبد ، وبذلك تم انتصار الوثنية وعم انتشارها ، حتى لقيت كل هاتيك الأوثان مصرعها حينما دخل محمد (ص) مكة على رأس جيش من المسلمين فى السنة الثامنة للهجرة (= ٦٢٩ م)

أما أشهر القبائل التى نسلت من إسماعيل من عدنان واستقرت فى الحجاز فهى هذيل وكنانة وقريش ، وينبغى أن نجعل اسم هذه القبيلة الأخيرة على الدوام نصب أعيننا ، إذ نجدها قبل ظهور محمد بقرن صاحبة السيادة فى مكة . وشيوخها حراس الكعبة ، وتلك مرتبة قد حرصوا عليها لما تدره من ثراء عظيم . وسبب صعودهم إلى معارج القوة أنه كان لكلاب بن مرة ولدان : هما زهرة وزيد وكان الثانى طفلا حينما اغتصب الموت أباه ، وتزوجت أمه فاطمة من رجل يدعى ربيعة فاحتملهما إلى بلاده ، وشب زيد بعيدا عن وطنه الأول ومن ثم سمى « قصيًّا » ، ولما بلغ مبلغ الرجال وعرف موطنه أتى مكة حيث كانت السيادة فيها معقودة على هام بنى خزاعة وتحت زعامة شيخهم حليل بن حُبشية ، فكانت شؤون الكعبة بعيدة عن قريش وهى من سلالة إسماعيل ، ثم إن قصيّ بن كلاب خطب إلى حليل بنته حُبّى فرغب فيه حليل ، وكان هدف قصى أن يخلف حليلا فى هذه المكانة الرفيعة ، بيد أن هذا سلم مفاتيح الكعبة ساعة وفاته إلى أحد ذوى قرباه واسمه أبو غبشان ، وكان كثير الشرب فاحتال قصى عليه وأسكره حتى باعه مفاتيحها لقاء زق من النبيذ . ولذا يقال فى الأمثال « أضل من غبشان » ، ولم ترض خزاعة بهذا الأمر فامتشقت الحسام ، ولكن قصيًا ظهر عليها . ومن ثم غدا المهيمن على شؤون البلدة وحرمها القدسى ، وكانت باكورة أعماله أن جمع قريشا وكانت قد تفرقت فى سهول مكة فسمته قريش « المجمّع » وبنى دار الندوة حيث يجتمع شيوخ العشائر والقبائل فيها متبادلين الرأى والمشورة فيما يعرض أمامهم من الأمور ، ولما مات قصى احتفظت قريش بهذا الأثر المقدس وظل فى بيتها .

وربما كان موت قصى قد حدث فى النصف الثانى من القرن الخامس للميلاد ، ولقد ولد الرسول بعد ذلك بقرن أعنى عام ٥٧٠ أو ٥٧١ م وهنا ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ مكة طوال هذه الفترة كان سجلا لمشاغبات تافهة قل أن تتخللها حادثة ذات أهمية ، كما أننا نجد الصدارة لأسلاف النبى طوال هذه المدة . وتظهر المنافسة التاريخية للبيتين الأموى والعباسى فى شخص مؤسسيهما : أمية وهاشم ؛ وفى أثناء ذلك كان نفوذ قريش ثابت الدعائم ، واسع الانتشار ، وغدت الكعبة دار ندوتهم الأهلية الكبرى ، كما أن وفود الحجاج الذين أقبلوا من مختلف أصقاع بلاد العرب لم يعملوا حسب فى رفع العبء عن قريش بل عاونوها فى تنمية مركزها التجارى ، ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف عزم أبرهة — والى الحبشة على اليمن — على النيل من مكة لما ارتكبه أحد القرشيين من تدنيس كنيسة صنعاء ، وقد يصح أن يكون هذا سببا يتخذه أبرهة ، بيد أنه كان يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها .

ويزعم المؤرخون المسلمون أن هذه الحادثة [1] العجيبة وقعت عام ميلاد الرسول فى السنة المعروفة بعام الفيل حوالى ٥٧٠ م ،

(١) ابن هشام ج ١ ص ٥١

(١) راجع ما كتبه الطبرى عن حملة أبرهة ج ١ ص ٩٣٦ ، ٩٣٩ - ٩٤٥ ، وفى ترجمة نلدكه ص ٢٠٦ - ٢٢٠

وبرهان على أن العرب قد هالهم مرأى هذه الحيوانات الضخمة أن واحداً أو أكثر قد صحب الحملة الحبشية ، وقد أوقع صدى استعداد أبرهة الحربى الرعب فى قلوب القبائل التى حاولت فى مبدأ الأمر أن تصده ، معتبرة الدفاع عن الكعبة واجباً مقدساً ، ولكن سرعان ماطارت نفوسهم شعاعاً إذ رأوا أن لاقدرة لهم على ذلك ، وبعد أن هزم ابرهة ذا نفر الحميرى ، عسكر فى جوار مكة دون أن يلق مقاومة تذكر ، بعث إلى عبد المطلب جد النبى الرسالة التالية ، وكان عبد المطلب موقراً محترماً من جميع القبائل « إنى لم آت إلى سريكم ، إنما جئت لأهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم » فرد عليه عبد المطلب « والله مانريد الحرب وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم ، وإن للبيت رباً سيمنعه ، وإذا لم يتأ فلاحول لنا ، وانطلق عبد المطلب إلى معسكر الأحباش مع حناطة رسول أبرهة فتوسط له أنيس[1] عند الملك وقال له «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب رجلا عظيما وسيما جسيما ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه « قل له ما حاجتك » فقال عبدالمطلب « حاجتى إلى الملك أن يرد علىّ مائتى بعير أصابها لى » فقال أبرهة لترجمانه « قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ » فقال عبد المطلب « إنى أنا رب الأبل وإن للبيت ربا سيمنعه » قال « ما كان يمنع منى » قال أنت وذاك ، اردد إلى إبلى »[2]

ويقال إن القبائل المقيمة حول مكة قد أوفدت رسلا من لدنها ومن بينهم عبدالمطلب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم[3] ولما استعاد عبد المطلب إبله انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرّة الجيش ، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش فقال عبد المطلب :

لاهُمَّ إنَّ العبـــد يمـ ـنع رحله فامنع حلالكَ[1]
لا يغلبنَّ صـــليبهم ومحالهم أبدا محـالك
ولئن فعلت فربمـــا أولى فأمر ما بدا لكْ
ولـــئن فعلتَ فإنه أمر تتمّ به فعالك[2]

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة فأقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جانب فيله وقال « ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام » ثم أرسل أذنه فبرك الفيل فوجهوه لمكة فأبى ثم للشام فهرول ، ولنشرق واليمن ففعل مثل هذا ، وأرسل الله عليها طيرا من البحر أمثال الخطاطيف[3] يحمل كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه لا تصيب أحدا منهم إلا هلك وقد أشير إلى هذا الحادث فى السورة الخامسة بعد المائة المعروفة بسورة الفيل حيث يقول تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فى تَضْلِيل ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيل ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول)

وإن الفصل الذى قام بتمثيله عبد المطلب فى هذه القصة لهو فصل دينى الغرض منه تبجيل شأن هذه المدينة المقدسة ، كما يتضح لنا منه ما كانت عليه أسرة النبى من سطوة وثراء قبل انبثاق نور الإسلام بنصف قرن ، « وحينما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، وعظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم ، وقالوا فى ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم وينسب ابن اسحاق الأبيات التالية إلى ابن الصلت بن ربيعة

(١) سائس فيل ابرهة وكان يسمى محمودا
(٢) الطبرى ج ١ ص ٩٣٨ - ٩٣٩
(٣) الطبرى ١ : ٩٣٩

(١) قرأها نيكلسون حلالك (بكسر الحاء) ومن ثم ترجمها هكذا :
O God ! defend Thy neighbouring folk even as a man his gear defendeth !
(٢) ١ الطبرى ١ : ٩٤٠
(٣) ويقول الطبري أيضا (ص ٩٤٠ س ٢) ان هذه الحجارة « لا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا نفطر ذلك الموضع فكان ذلك اول ماكان الجدرى والحصبة . وهنا نرى حقيقة تاريخية تلك هى انتشار المرض فى جيش الحبشة

الثقفي وينسبها كثيرون غيره لأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور وكان حنيفياً ومعاصرا للنبي :

إن آيات ربنا ثاقبات لا يمارى فيهن إلا الكفورُ
خلق الليل والنهار فكلٌ مستبين حسابُه مقدورُ
ثمَّ يجلو النهار رب رحيم بمهاةٍ شعاعها منشورُ
حبس الفيل بالمغمس حتى ظلّ يحبو كأنه معقورُ
لازماً حلقة الجران كما قطـ ـطرَ من صخر كبكب مجدورُ[1]
حوله من ملوك كندة أبطا ل ملاويث في الحروب صقورُ
حلّفوه ثم ابذعروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسورُ[2]
كل دينٍ يوم القيامة عند اللـ ـهِ إلا دين الحنيفة زور

ولقد أثارت غزوة الأحباش وهزيمتهم النعرة الوطنية في نفوس عرب الحجاز ، هذه المشاعر التي لابد وأن يكون قد شاركهم فيها إلى حد بعيد البدو عامة ، وظهرت روح جديدة خلال الحوادث التي تخللت الأربعين عاماً التي تلت هذا الحادث في جميع نواحي شبه الجزيرة ، وينبغي أن نتذكر دائماً أن أسرة المخمين في الحيرة قد انتهت بالنعمان الثالث الذي لقي مصرعه على يد خسرو برويز (٦٠٢ م ، ٦٠٧ م) وكان قبل موته قد استودع أسلحته وبعض حاجاته عند هانيء شيخ عسيرة بني بكر وقد طلب خسرو هذه الودائع ولكن هانئا رفض تسليمه إياها ، فأرسل هذا جيشا فارسيا عرمرماً إلى ذي قار وهو مكان قرب الكوفة يطفح بالمياه المتدفقة ولذلك كان ملجأ حصينا لبني بكر أثناء فصل الجفاف ، ونشبت هناك معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الفرس هزيمة منكرة [3] وكانت قوات العرب أكثر من ثلاث الفرس [4] ، وقد عد العرب هذه الموقعة فاتحة عصر جديد . من ذلك ما يروى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قال حينما سمع بهذا « هذا أول يوم استراح فيه العرب من الفرس »

(١) الجران العنق والكبكب اسم جبل ، والمجدور : الحجر الذي جدر حتى بلغ الأرض
(٢) ابذعروا تفرقوا (الاصل)
(٣) راجع الطبري ١٠١٦ - ١٠٣٧ وترجمة نلدكه ٢١١ - ٢٤٥
(٤) كان عدد العرب ثلاثة آلاف مقاتل والفرس الفين ، وقد ذكر هذا في قصيدة لكبير اسم بني الحارث بن عباد يمتدح بها بني شيبان .
عربا ثلاثة الف . وكتيبة الفين اعجم من بني القدام

أما قبائل الصحراء فقد قوى اعتقادها في نفسها وأخذت موقف المهاجم بعد أن كانت من قبل تستظل بلواء امبراطورية آل ساسان وتخضع للأسرة الحاكمة في الحيرة ، وأخذت تلك القبائل تظهر الموجدة والاحتقار بهذا الشيخ الذي لم يعودوا يخشون بطشه بل وطئوه بأقدامهم . ؟

« انتهى الفصل الثاني »

محمد حسن عبشي

صدر أخيرا

فلسفة اللذة والألم

للأستاذ اسماعيل مظهر

عضو المجمع المصري للثقافة العلمية

وهو بحث مستفيض عن فلسفة أرسطيس الفيلسوف اليوناني يتناول جزئيات أدبية وعلمية وفلسفية في فلسفة اللذة والألم مع لمحة إلى تاريخ المذهب وتطوره منذ نشأته إلى الآن ، مشفوعة بمقارنات شتى ، تدور حول اتخاذ اللذة الرائعة أساساً للسلوك

وهذا الكتاب يتضمن أول بحث كامل في هذا المذهب الكبير ويدرس تاريخ الصراع الفكري بين أصحاب المذهب المثالي وأصحاب مذهب اللذة في المحسوسات ... ويقع في حوالي ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد وازن مؤلفه بين شتى المذاهب ، لاعتماده في مختلف العصور اتماماً للفائدة البحوث التي يدور عليها المذهب أصلاً .

ثمنه ١٥ قرش بخلاف أجرة البريد

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

شارع المدابغ رقم ١٥ بالقاهرة